ISLĀMIYYĀT 8 (1987) 79 - 98

منهج المتكلمين وفلاسفة المسلمين في الاستدلال على العقيدة

الدكتور عبدالشكور حسين ·

مقدمة :

من ابرز علماء الاسلام وأكثرهم تعرضا لقضية العقيدة علماء الكلام على اختلاف طوائف وتعدد فرقهم · وفلاسفة المسلمين ،وان كانوا أقل عددا من المتكلمين لكنهم كثيرون في انفسهم ولهم آراء ونظريات ،وهي طائفة عظيمة لاسيما في أعين المثقفين · وكان لهؤلاء وهؤلاء منهج خاص ونظريات دقيقة في فهم مسائل العقيدة بل لهم ردود مفحمة على المنحرفين والملحدين والمارقين ·

ومما لا شك فيه أن هذه الاعمال لا ينكر فضلها الا أن بين الطائفتين اتجاهات ومناهج واسعة الاختلافات وهذه الاختلافات خصوصا في فهم مسائل العقيدة والاستدلال عليها بعضها يكون على طرفي نقيض حتى كان لكل من الفريقين مؤيدون ومعارضون ·

الا أننا نحب أن نقرر كما يقرر كثير من الباحثين من أن الخلاف بين الطوائف الاسلامية في مسائل العقيدة ليس في لب العقيدة ولكنه في مسائل فرعية قد تكون فلسفية لا تمس ركنا من اركان الاسلام أو الحقائق الاسلامية الثابتة كوحدانية الله تعالى والايمان بالرسل والملائكة وأن القرآن من عند الله فكلهم مقرون ومؤمنون بهذه الحقائق بل لا يبقى عليهم الا الاذعان ولا مجال للاقوال والجدل لأن من خالف في شيء من هذه الحقائق كان منكرا وخارجا عن عقيدة الاسلام الصحيحة ·

فالواقع أن الخلاف أو النزاع بين علماء الكلام وفلاسفة

المسلمين اذن هو فى فهم هذه الحقائق ، وتفسيرها وفى طرق اثباتها . حتى يظهر عند كل من الفريقين بحث ونقاش عنيف .

ولهذا فدراسة منهج كل من الفريقين فى غاية الاهمية ولا يستغنى أى باحث من معرفته اذا اراد الوقوف على حقيقة اتجاهاتهم ومعالجتهم لقضية العقيدة . ونمهد لدراسة ذلك برأى السلف فى هذه القضية ليكون منطلقا واضحا الى دراستنا هذه .

رأى السلف فى فهم العقيدة :

أجمع الباحثون على أن المؤمنين من السلف[1] وكذلك من نهج منهجهم يأخذون عقيدتهم من الكتاب والسنة ويستدلون على تلك العقيدة بنفس آيات القرآن الكريم واحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام ولم يتجهوا الى الطرق الاخرى فى اثبات عقيدتهم ،ولم يطمئنوا لسواهما ولم يكن للجدل العقلى مجال فى تقرير تلك العقيدة ،فأخذوا أنفسهم بالتزام ما يأتى به القرآن والسنة على أكمل وجه فيقتصرون فى الاستدلال على وجود الله وصفاته ونبوة أنبيائه وكتبه وملائكته واليوم الآخر على ما ورد فى الكتاب الكريم وما بينه النبى عليه الصلاة والسلام حيث يقول المقريزى (لم يكن أحد منهم يستدل على وحدانية الله تعالى وعلى اثبات نبوة محمد صلى الله عليه وسلم سوى كتاب الله ولا عرف أحد منهم شيئا من الطرق الكلامية ولا مسائل الفلسفة فمضى عصر الصحابة رضى الله عنهم على هذا)[2].

والسبب فى ذلك أنهم مؤمنون بأن الله قد أكمل الاسلام وأتم به النعمة حيث يقول عزوجل : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا)[3].
وأن الرسول عليه الصلاة والسلام بين ذلك بيانا شافيا حيث

يقول ابن تيمية : (فكل ما يحتاج الى معرفته واعتقاده والتصديق به من هذه المسائل قد بينه الله ورسوله بيانا شافيا قاطعا للعذر اذ هذا من أعظم ما بلغه الرسول وبينه للناس وهو من أعظم ما أقام به الحجة على عباده فيه بالرسل الذين بينوه وبلغوه)[٤].

لذلك لم يسأل احد منهم على اختلاف عقولهم عن شيء من ذلك كما كانوا يسألونه عن الأمور العملية . وهذا الموقف ليس معناه طعنا فى العقل ومكانته وشرفه بل أنهم وجدوا أن دلالة الكتاب والسنة على أصول الدين ليست بمجرد الخبر بل الكتاب والسنة دلا الخلق وهديا الناس الى اليقين، فيكرهون الجدل والخوض فى المسائل الاعتقادية لأنهم عرفوا أن العقل لا يستطيع أن يستكشف حقائقها ويصل الى أسرارها، وأنهم وجدوا أن الله تعالى قد نهى عن الخوض والجدل فى آياته وحذر من اتباع المتشابه وكذلك فعل النبى عليه الصلاة والسلام وحذر من ضرب الكتاب بعضه ببعض . حيث يقول عزوجل : (واذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره واما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين)[٥] . وقوله تعالى: (ما يجادل فى آيات الله الا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم فى البلاد)[٦].

أما السنة فقد رويت أحاديث كثيرة فى منع الجدل فى أصول الدين والاختلاف فى الكتاب منها، ما روى البخارى ومسلم بسندهما عن عائشة رضى الله عنها قالت : تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم (هو الذى أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات فأما الذين فى قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله الا الله والراسخون فى العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا

الألباب)[7] قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم . وغير لك من الأحاديث تفيد النهى عن ذلك [8].

وعلى هذا فموقف السلف ـ الصحابة والتابعين وكبار الأئمة من القرآن والسنة موقف الاقرار والاذعان ولم ينكر أحد منهم ما جأ به من الشرع بل أقروا وأذعنوا لكلام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ولم يعادموه ولم يعارضوه وكانوا يؤمنون بما ورد به الكتاب والسنة ولا يتعرضون للتأويل ويحترزون عن التشبيه فهم كما يقول الامام محمد أبو زهرة : (لقد كان القرآن الكريم الورد المورود عند السلف يلجأ اليه والى السنة كل من يريد معرفة صفات الله تعالى وما يجب الايمان به من عقائد لا يصدرون عن غيره ولا يطمئنون لسواه ،كانوا يفهمون العقائد من آيات الكتاب وهى بينات وما اشتبه عليهم حالوا فهمه بأساليب اللغة وهم بها خبراء وان تعذر عليهم توقفوا وفوضوا الأمور لله غير مبتغين فتنة ولا راغبين فى زيغ[9]. بل ليس القرآن هو مصدر عقيدتهم فقط وانما هو المنهج الأصيل لمواجهتهم منكرى الألوهية والنبوة حيث يقول الامام الغزالى : (انهم أى الصحابة كانوا محتاجين الى محاجة اليهود والنصارى فى اثبات نبوة محمد عليه الصلاة والسلام والى اثبات الآلهية مع عقيدة الأصنام والى اثبات البعث مع منكريه ثم مازادوا على هذه القواعد التى هى أمهات العقائد على أدلة القرآن وما ركبوا ظهر اللجاج فى وضع المقاييس العقلية وترتيب المقدمات وتحرير طرق المجادلة وتذليل طرقها ومنهاجها وكل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتنة ومنبع التشويش)[10].

ولم يستمر هذا الوضع عند المسلمين ولم يكن كل علماء الاسلام يتمسكون فى أمور العقائد بهذا المنهج السلفى. فقد دب الخلاف بين علماء الاسلام حول بعض مسائل العقيدة ، فتعددت الفرق وتنوعت المناهج وذلك لأسباب وعوامل كثيرة .

عوامل الخلاف :

هذه العوامل منها عوامل داخلية ،وان بدأت سياسية كالتنازع على الخلافة لكنها جرت الى مسائل دينية كمسألة مرتكب الكبيرة وحكمه ،ومسألة أفعال العباد،وورد المتشابه فى القرآن الكريم ونحوها .

ومنها خارجية كالأفكار الفلسفية والديانات القديمة التى تسربت الى المحيط الاسلامى ،وذلك بطريق الفتوحات الاسلامية واختلاط المسلمين بهم لا سيما البلدان التى انتشرت فيها ثقافات قديمة كالفرس فقد عرفت الأفكار الزرادشتية والمانوية والمزدكية وما الى ذلك ،واعتنق أهلها الاسلام وحملوا معهم هذه الآراء والأفكار وكذلك فتح المسلمون بلادا سادت فيها الديانة النصرانية أو اليهودية كالشام ومصر وبلاد المغرب . واختلط المسلمون بهؤلاء وعوشوا معهم جنبا الى جنب وتدارسوا العلوم الاسلامية ولا شك أن فى عقولهم وقلوبهم عقائد وأفكار قديمة راسخة تسيطر عليهم بل أراد بعضهم نشرها وابرازها بين الناس ويعملون بذلك اذا اتاحت لهم الفرصة .

وازداد انتشار هذه الأفكار بين المسلمين عندما اتسعت حركة الترجمة التى شجعتها الدولة أو قام بها بعض الأفراد ،خاصة الفلسفة اليونانية .

وقد نتج من السبب الثانى اهتمام بعض علماء المسلمين

الى الاطلاع على هذه الثقافات وبالأخص الفلسفة اليونانية لوقوفهم أمام خصومهم يجادلونهم بمثل حججهم .

وبدخولها تلك الأفكار والفلسفات المختلفة وظهور المسائل المذكورة وغيرها وجدت بحوث كثيرة حول العقيدة فتكلم بعض العلماء حول هذه المسائل حتى تكاثرت الموضوعات التى جرى فيها الخلاف ،وتكونت الاتجاهات والمذاهب الاسلامية ولكل منهم منهج خاص فى معالجة هذه المسائل وصار لكل من الفرق آراء خاصة بناء على المنهج الذى سلكوه .

منهج المتكلمين فى العقيدة :

يراد بهذا المنهج الطريق الذى يعتمد عليه أهل الكلام فى الاستدلال على العقيدة وقد خالف المتكلمون أهل السلف فى بحثهم واستدلالهم على العقيدة فهم آمنوا بالنصوص ثم أرادوا أن يبرهنوا على ذلك بالأدلة العقلية والجدل المنطقى .

يقول ابن خلدون وغيره فموضوع علم الكلام عند أهله انما هو العقائد الايمانية بعد فرضها صحيحة من الشرع من حيث يمكن أن يستدل عليه بالأدلة العقلية فترفع البدع وتزول الشكوك والشبه عن تلك العقائد)[11].

فمنهج البحث فى العقيدة عندهم يتكون من طريقين أساسيين :-

أولا : النصوص الدينية . ثانيا : الجدل العقلى أو القضايا العقلية والخلاف بينهم فى مدى الاعتماد على أى من الطريقين السابقين .

وأهم الفرق الكلامية التى لها منهج خاص وأكثرها أصالة

وأوسعها انتشارا فى مسائل العقيدة وهى المعتزلة والاشاعرة والماتريدية . أما بقية الفرق الأخرى فآراءها فى العقيدة محدودة ولم تترك لنا منهجا واضحا فيها بل أكثرها يمكن أن تكون تابعة للطوائف السابقة .

١ ـ المعتزلة :

يصادفنا بصدد فرقة المعتزلة كثرة الآراء حول نشأتها وتسميتها باسم المعتزلة . منها ما أشار اليه الشهرستانى وغيره : اعتزال واصل بن عطاء مجلس الحسن البصرى . فى مسالة مرتكب الكبيرة حيث خالف واصل الحسن فقال : (أنا لا أقول ان صاحب الكبيرة موءمن مطلقا ولا كافر مطلقا بل هو فى منزلة بين المنزلتين) ثم اعتزل مجلس الحسن واتخذ له مجلسا اخر فى المسجد . فقال الحسن: اعتزلنا واصل ـ فسمى هو وأصحابه معتزلة . .

وأما الامام الاسفرينى (ت ٤٧١) فيرى أنهم سموا معتزلة لاعتزالهم مجلس الحسن البصرى واعزالهم قول المسلمين.

وحاول بعض الباحثين ايجاد الصلة بين الاعتزال بالمفهوم السياسى وبين الاعتزال بالمفهوم الكلامى : وذلك عندما اعتزل قوم من أصحاب على رضى الله عنه عن السياسة وانصرفوا الى العقائد عندما نزل الحسن عن الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان ، فسموا أنفسهم " معتزلة " لأنهم اعتزلوا الحسن ومعاوية وجميع الناس .

ومهما كان الخلاف بين العلماء بين العلماء فى نشأة هذه الطائفة وفى التسمية الا انهم لم يختلفوا فى أن لهذه الطائفة أصول خمسة فكل من اجتمعت فيه هذه الاصول فهو معتزلى ـ التوحيد ـ والعدل ـ والوعد والوعيد ـ

والمنزلة بين المنزلتين والأمر بالمعروف والنهى من المنكر .

فالمعتزلة يقدمون العقل على النقل ويجعلون للعقل المكانة الأولى وللنص المكانة التالية ، بمعنى أنه اذا تعارضت الأدلة السمعية مع العقلية فانهم يقدمون العقل، فمنهج المعتزلة فى الاستدلال على العقيدة عقلى،وكانوا يعتمدون على الجدل العقلى ،فكل مسألة من مسائل العقيدة يعرضونها على العقل فما قبله أقروه ومالم يقبله رفضوه الا أنهم مع ذلك مقيدون بالأصول الاسلامية وجميع بحوثهم كانت فى مجموعها لا تخرج عى وحى القرآن وظله .

يقول الامام أبو زهرة ملخصا لرأى الامام ابن تيمية فى ضبط منهج المعتزلة فى العقيدة : (انهم يقدمون قضايا عقلية قبل النظر فى الإيات القرانية فهم يأخذون بالنوعين فى الاستدلال . ولكن يقدمون النظر العقلى على الدليل النقلى فيؤولون على مقتضى العقل وان كانوا لا يخرجون عن عقائد النصوص)[١٢].

وبناء على منهجم العقلى هذا قرروا مذهبهم فى قضايا العقيدة . ففى التوحيد مثلا يذهبون الى التنزيه المطلق لله تعالى ،والوحدانية الكاملة ،وان كان التوحيد اعتقاد المسلمين كافة لكنه بالنسبة للمعتزلة له مفهوم خاص فينفون عن الله الصفات الالهية الزائدة على الذات والمعروفة بصفات المعانى وينزهون البارى جل شأنه عن المسادة وأعراضها تنزيها تاما كما قالوا باستحالة رؤية الله بالابصار يوم القيامة لاقتضاء ذلك الجسمية والجهة وأن القرآن مخلوق . وكل هذه بناء على ما يقرره العقل عندهم لمنع تعدد القدماء ويوءمنون بالتنزيه المطلق وهكذا فى المسائل الأخرى فانهم يقررونها بناء على أصولهم العقلية .

وقد علل العلماء موقف المعتزلة العقلى هذا بتأثرهم بالأفكار الفلسفية الدخيلة فى الاسلام كاليونانية وغيرها. وقد دفعهم الى ذلك امران :-

اولا : أنهم وجدوا فيها ما يرضى نهمهم العقلى وشغفهم الفكرى .

ثانيا : استخدموا بعض طرق الفلاسفة فى النظر والجدل وتعلموا كثيرا منها لخدمة الدين والدفاع عنه واجهدوا أنفسهم فى حمايته ردا على الثنوية والمجسمة والزنادقة وغيرهم . لذلك نحن مع الامام الشيخ أبى زهرة حيث يقول (لا شك أن المعتزلة أخطأوا أو أصابوا لم يخرجوا عن الدين بخطئهم ولهم ثواب فيما دعوا اليه وما دافعوا به عن الاسلام فهؤلاء يعدون فلا سفة الاسلام حقا لأنهم درسوا العقائد الاسلامية دراسة عقلية)[13] ونفس هذا المعنى يقول به كثير من الباحثين .

الأشاعرة :

أما الأشاعرة فهى مدرسة حاولت أن تقف موقفا وسطا بين المغالين فى نطاق طوائف المتكلمين فى التمسك بظواهر النصوص كالمشبهة والمجسمة أو فى التمسك بالعقل كالمعتزلة وظهر هذا الموقف الوسطى على يد أبى الحسن على بن اسماعيل الأشعرى (ت ٣٣٠ هـ) الذى كان فى بدء حياته تلميذ لأبى على الجبائى من أئمة المعتزلة الا أنه رفض منهج المعتزلة وخرج من تلك المدرسة فقد نقل ابن عساكر وغيره قوله المعروف : (معاشر الناس انما تغيبت عنكم هذه المرة لأنى نظرت فتكافأت عندى الأدلة ولم يترجح عندى حق على باطل ولا باطل على حق فاستهديت الله تبارك وتعالى فهدانى الى اعتقاد ما أودعته فى كتبى هذه وانخلعت من جميع ما كنت اعتقده كما انخلعت من ثوبى هذا وانخلع

من ثوب كان عليه ورمى به ودفع الى الناس الكتب التى ألفها على مذهب أهل السنة)[14] لأنه رأى أن المنهج الاعتزالى يؤدى بالمعتزلة الى انكار حقائق وردت عن طريق الكتاب والسنة ،وأعلن منهجه وهو التزامه أولا بما جاء فى الكتاب والسنة وبما روى عن الصحابة والتابعين وأئمة أهل الحديث قال (قولنا الذى نقول به وديانتنا التىندين بها التمسك بكتاب الله عزوجل وبسنة نبينا محمد عليه الصلاة والسلام وما روى عن سادة الصحابة والتابعين وأئمة الحديث ونحن بذلك معتصمون وبما كان يقول به عبدالله أحمد بن حنبل نضر الله وجهه ورفع دَرجته وأجزل مثوبته قائلون ولمن خالف قوله مخالفون) [15].

وبهذا يظهر لنا مدى تمسكه بمذهب السلف ويمثله عنده خير التمثيل الامام أحمد بن حنبل رضى الله عنه. وبالرغم من هذه النصوص التى تفيد أن الأشعرى سلفى محض. فانه لا يهمل الجانب العقلى . فقد اتجه الى البرهان العقلى ليؤيده به صدق ما جاء فى الكتاب والسنة فهويقرر أن من الجهل منع النظر والبحث عن الدين والميل الى التقليد وتضليل من فتش عن أصول الدين حيث يقول (أما حوادث تحدث فى الاصول فى تعيين مسائل فينبغى لكل عاقل مسلم أن يرد حكمها الى جملة الأصول المتفق عليها بالعقل والحس والبديهة وغير ذلك لأن حكم مسائل الشرع التى طريقها السمع أن تكون مردودة الى أصول الشرع التى طريقها السمع وحكم المسائل العقلية والمحسوسات أن يرد كل شىء كذلك الى بابه ولا تخلط العقليات بالسمعيات ولا السمعيات بالعقليات)[16].

ومما تقدم يتضح أن منهج الأشعرى منهج وسطى،بين المغالين يقوم على مسلك النقل والعقل فهو يثبت ماجاء فى القرآن الكريم والسنة الشريفة من أوصاف الله تعالى ورسله

واليوم الآخر والملائكة والحساب . والعقاب وغيرها ويتجه الى الأدلة العقلية يستدل بها على صدق ما جاء فى القرآن والسنة عقلا بعد الايمان بها كما هى نقلا فهو لا يتخذ من العقل حاكما على النصوص ليؤولها أو يمضى ظاهرها بل يتخذ العقل خادما لظواهر النصوص يؤيدها .

ولهذا فلا تناقض بين النصين السابقين لأن النص الأول يفيد التزامه بما جاء فى الكتاب والسنة واتجاهه التوسطى بين المغالين أما نصه الثانى فانه يأخذ البرهان العقلى فى اثبات ما جاء فى النصوص اثباتا عقليا الا أنه لم يرفع مكانة العقل على النقل ولم يفضله عليه كما فعل المعتزلة .

وذكر ابن عساكر وغيره أمثلة كثيرة لمنهج الاشعرى فى التوسط بين المغالين سواء كانت فى الصفات أو فى القضايا الأخرى فرأيه فى الصفات أنه وسط بين المعتزلة الذين نفوا صفات المعانى التى وردت فى القرآن الكريم وبين المشبهة الذين شبهوا ذاته تعالى فى أوصافها بصفات الحوادث وجاء الأشعرى فاثبت الصفات التى وردت كلها فى القرآن الكريم والسنة وقرر أنها صفات ليست كصفات الحوادث بل هى صفات تليق بذاته تعالى .

أما رؤية الله فانكر المعتزلة رؤيته تعالى يوم القيامة وقال المشبهة ان الله يرى يوم القيامة مكيفا محدودا ،وذهب الأشعرى الى التوسط فقال أنه تعالى يرى من غير حلول ولا حدود .

وبالنسبة لكلام الله تعالى قال المعتزلة القرآن مخلوق محدث خلقه الله تعالى وقال المشبهة الحروف المقطعة والاجسام

التى يكتب عليها والمداد الذى يكتب به وما بين الدفتين كليها قديمة أزلية . فسلك الأشعرى طريقة بينهما فقال القرآن كلام الله قديم غير مخلوق ولا مبتدع فأما الحروف المقطعة ،والأجسام ،والمداد والأصوات وكل ما فى العالم من المكيفات فمخلوق مبتدع مخترع .

وبالنسبة للصفات الخبرية التى ثبتت عن طريق الشرع مثل (يد الله فوق ايديهم) ذهب المعتزلة الى أن المراد باليد السلطان والقوة وذهب المشبهة الى أن يده جارحة وقال الأشعرى يده يد تليق بذاته الكريمة وليست يد جارحة كأيدينا . وهذا ما ظهر فى الابانة فانه صرح بالتفويض ولكنه يظهر أنه رجع عن هذا الرأى اذ جاء فى اللمع أنه قرر التأويل كما ذهب اليه المتأخرون من بعده من الأشاعرة[17] والحق أن الأشاعرة لا يلتزمون بمذهب السلف فى جميع المسائل اذ خالف متأخرو الأشاعرة فى مسألة الصفات الخبرية حيث ذهبوا الى التأويل دون التفويض ففسروا قوله تعالى : (الرحمن على العرش استوى ،بالاستيلاء أو العلم ـ ويد الله ـ بالقدرة وكان لهذا المذهب أنصار واتباع كثيرون من العلماء والمفكرين الأفذاذ كأبى بكر الباقلانى وامام الحرمين وحجة الاسلام الامام الغزالى وكلهم سلكوا منهج الاشعرى ونشروا أفكاره وقل أن يضيفوا جديدا بوجه عام فى المنهج فكلهم يأخذون العقل لخدمة النصوص ولا يقدمونه عليها لذلك لانزاع فى أن النزعة السلفية هى السائدة بصفة عامة لدى الأشاعرة . ولعل ذلك الموقف سمى الأشاعرة أهل السنة .

أبو منصور الماتريدى :

وسار على نهج الأشعرى أبو منصور الماتريدى وذهب الى التوسط بين المغالين من المشبهة والمعتزلة ولهذا الموقف

الموحد قرر كثير من الباحثين أن الخلاف بين الأشـــاعرة والماتريدية ليس كبيرا فكل منهما يتمسك بالنصوص ويحاول اثباتها بالبرهان العقلى الا أن أبا منصور كان يعطـــى للعقل سلطانا اكثر مما يعطيه الأشعرى ولكنه فى حـــدود أنه يأخذ العقل فيما لا يخالف الشرع فان خالف الشرع فلا بد من الخضوع لحكم الشرع[١٨].

الخلاصة :

ومما سبق نستطيع أن نستخلص أن المتكلمين وان اختلفوا منهجا الا أن هذا الخلاف لم يتناول أصول الدين الثابتـــة كوحدانية الله والايمان بالأنبياء واليوم الآخر وغيرهـــا من الحقائق الدينية .

فالمعتزلة وان كانوا يقدمون العقل على النقل الا ان اعتمادهم على العقل وتأويلاتهم العقلية كانت فى مجموعها لا تخرج عن وحى النصوص الدينية ،فانكارهم لصفات المعانـــى وغيرها ليس انكار لنفس الصفات أو النصوص وانما انكروا أن هذه الصفات قائمة بالذات وزائدة عليها لايمانهـــم بالتنزيه المطلق ونفى تعدد القدماء ولمحاربة المشبهـــة والثنوية وأما الأشاعرة والماتريدية فقد أثبتوا هـــذه الصفات لانها صفات الكمال يجب اتصاف الله بها الا انهـــا ليست كصفة من صفات الحوادث . ومهما كان الخلاف بينهـــم فانه لا ينطلق بعيدا عن ضوء النصوص .

وثانيا : أنهم يقرون بمكانة العقل الا أن الخلاف فى مدى الاعتماد عليه ازاء النص فالمعتزلة فى فهم مسائل العقيدة يعطون للعقل دورا أكبر من الأشاعرة والماتريدية .

ونحن لا ننكر أن الافراط فى تقديم العقل على النقل

فى فهم العقيدة قد يؤدى عند بعض المعتزلة الى آراء مغالية أو متطرفة فى الخروج عن النصوص . كما نجد على الضد من ذلك فى الاعتماد على النصوص واهمال العقل عند الحشوية والمجسمة .

منهج فلاسفة المسلمين فى العقيدة :

ونقصد بفلاسفة المسلمين ، المشائين والذين تأثروا بالفلسفة اليونانية خاصة مذهب ارسطو فأقاموا منهجهم على المنهج العقلى البحت وعالجوا مسائل العقيدة بالبحث العقلى المجرد ، كأبى يوسف الكندى وأبى نصر الفارابى وابن سينا وابن رشد ومن سلك مسلكهم . فلهم منهج خاص يخالف أهل الكلام فى فهم مسائل العقيدة . ولكى نفهم حقيقة منهجهم فى الاستدلال على العقيدة لابد من الاشارة الى أهم الأمور فى منهجهم . وهو أنهم يجعلون الناس حسب استعداداتهم وعقولهم واختلافهم فى التعليم ومانالوه من المعرفة ، فرقتين متباينتين:العامة ، والخاصة ،وهذا التقسيم شائع عند فلاسفة المسلمين فجعلوا لكل منهما طريقا أو منهجا خاصا فى فهم أمور الدين . فيرون إن للجمهور وأسباههم الذين لا يطيقون النظر والوصول الى الحقائق فيكفى لهم الايمان بالنصوص الشرعية وما ضرب لهم من رموز وأمثال . حيث يقول ابن سينا (أما أمر الشرع فينبغى أن يعلم فيه قانون واحد وهو أن الشرع والملة الآتية على لسان نبى من الأنبياء يرام بها خطاب الجمهور كافة)[19] ونفس هذا المعنى يقول به ابن رشد .

فالجمهور ليس فى طباعهم أن يقبلوا البراهين والتأويلات الخفية فعليهم الاتباع والايمان بما جاء فى النصوص . وأما الحق فلا يلوح لهم منه الا امر مجمل كأن الله ليس له نظير ولا شبيه ولا شريك .

أما الخواص فهم اهل البرهان لا يقنعون الا بالحقائق فلهم منهج مخصوص يخالف منهج الجمهور . فطريق البرهان واليقين هو المعتمد عليه فى مسائل العقيدة . وعلى هذا نرى أنهم فى الاستدلال على العقيدة والأمور الميتافيزيقية يعتمدون على النظر العقلى ونتائجه ولا يستوحون من النصوص الدينية كما فعله المتكلمون . وهذا ظاهر من رأى بن سينا وغيره عندما تحدث عن الفلسفة النظرية التى تشمل الحكمة الالهية والأمور الغيبة فان الخاصة يدركون حقيقتها بالعقل والنظر على سبيل اليقين والشرع وما ورد فيه بخصوص هذه الأمور جاء على سبيل التنبيه والتوكيد لما أدركه العقل . يقول ابن سينا (أما الحكمة النظرية فأقسامها ثلاثة ـ حكمة طبيعية ـ وحكمة رياضية ـ وحكمه الهية ،ومبادىء هذه الأقسام التى للفلسفة النظرية مستفادة من ارباب الملة الالهية على سبيل التنبيه ومتصرف على تحصيلها بالكمال بالقوة العقلية على سبيل الحجة)[٢٠].

الا أنهم كما قلنا آنفا مؤمنون بالحقائق الدينية الثابته كوحدانية الله والنبوة والكتب المنزلة وغيرها ،وهم حريصون على الايمان بها والدفاع عنها كما كانوا متمسكين تمسك المعتقد بالنظر العقلى وما وجدوه من الآراء اليونانية كآراء أرسطو وأفلاطون ولذلك اتجهوا الى التوفيق بين الدين والفلسفة . معتقدين أن الدين لا يخالف العقل وأن معطيات العقل لا تخالف الدين . ففلاسفة المسلمين دون استثناء شغلوا بهذا التوفيق من الكندى الى ابن رشد . وبذلوا فيه جهودا ملحوظة . وسهما كان الأمر فمنهج التوفيق منهج عقلى . لأن التوفيق هو التقريب بين الجانبين أو الجمع بين الطرفين . ولا ريب أن فى الفلسفة نواحى لا تتفق مع الدين وفى بعض النصوص الدينية مالا يتمشى مع وجهه النظر الفلسفية . فعملية صيغ الفلسفة بصبغة دينية وكسوة بعض التعاليم الدينية بكساء فلسفى عملية عقلية

وعلى هذا نجد أن فلاسفة المسلمين يعالجون كثيرا من القضايا الدينية كالوحى والبعث وغير ذلك معالجة عقلية محضة بعيدة عن ظواهر النصوص وعن آراء علماء الاسلام ويحاولون أن يبرهنوا بأن ما وصل اليه العقل لا يناقض الشرع ويرون أن بعض النصوص الواردة فى القرآن الكريم كما فى شأن المعاد وأحواله لا تعبر عن حقيقتها .وانما هى أمثال ورموز لتقريبها لعقول العامة . أما أهل البرهان فلا يجوز حملها عندهم على ظواهرها بل يجب الايمان بالمعانى الخفية التى ضربت لها الأمثال والرموز .

خلاصة القول :

أولا : أن أهل الكلام وفلاسفة المسلمين كما سبق ذكره لم يختلفوا فى الايمان بالحقائق الدينية كوجود الله ووحدانيته والنبوة والكتاب والبعث وغيرها من أصول الدين فكلهم مؤمنون بها .

ثانيا : قام كل من أهل الكلام وفلاسفة المسلمين بجهد كبير ولا شك وان هذا الجهد الرغبة فى خدمة الدين والدفاع عنه أمام الزنادقة والملحدين أو المنحرفين عن العقيدة الصحيحة ،وأن فلاسفة المسلمين أثبتوا كثيرا من الحقائق الميتافيزيقية أمام هؤلاء الدهريين بدعائم عقلية بحتة . حتى يقول بعض الباحثين ان الجهد من فلاسفة المسلمين لم يكن موجها نحو الطوائف الاسلامية وانما كان مصوبا الى تلك الطوائف التى تنكر حقائق الدين وأصوله وأن هذه الطوائف لم تحارب الاسلام فحسب بل حاربت الأديان السماوية كلها .

ثالثا : أنهم يقرون بمكانة العقل الا ان الخلاف فى مدى الاعتماد عليه فى فهم العقيدة وفى تكوين مذهبهم . ومهما كان الأمر فان هذا الخلاف فى المنهج حول فهم مسائل

العقيدة بلا ريب شر لأنه قد يؤدى الى فتنة ومنازعات وخصومات بين المسلمين .

أما الخلاف الحقيقى بين الفريقين فهو فى فهم هذه الحقائق وتفسيرها وفى تكوين مذهب كل منهم . فالمتكلمون كما رأينا سابقا وان اختلفوا فى مناهجهم الا ان آراءهم فى العقيدة وفى تكوين مذهبهم كانت مجموعها لا تزال فى ظل الوحى القرآنى . ولم نر أحد يعالج حقيقة من حقائق الدين معالجة بعيدة عن النصوص وأنهم لا يؤولونها الا رأوا أنها تعارض العقل معارضة صريحة ولا ننكر أن المعتزلة بنزعتهم العقلية قد اتجهوا الى التأويل العقلى والاعتماد عليه أكثر من الأشاعرة ولكنهم أولا وأخيرا فرقة من الفرق الكلامية يجعلون همهم نصرة هذه العقائد وتأييدها تأييدا عقليا ولم يرتقوا بمنهجهم العقلى الى تفسير أصل من أصول الدين تفسيرا عقليا بحتا على النحو الفلسفى ولذا فانهم لم - يحاولوا التوفيق بين الحقائق الاسلامية والأفكار الاجنبة كما فعل بعض فلاسفة المسلمين وان أخذوا منها وذلك لخدمة الدين .

فالمتكلمون جميعا يبحثون العقيدة واثباتها فى ظل النصوص الدينية والواقع التاريخى لذلك يقول الاستاذ أحمد امين حين يبين الخلاف بين منهجى المتكلمين وفلاسفة المسلمين أن المتكلمين اعتقدوا قواعد الايمان وأقروا بصحتها وآمنوا بها ثم اتخذوا أدلتهم العقلية للبرهنة عليها فهم يبرهنون عليها عقليا كما برهن القرآن عليها وجدانيا . فموقفهم موقف محام . أما الفلاسفة فهم يبحثون المسائل بحثا مجردا ويفرضون أن عقولهم خالية من مؤثرات ومن اعتقادات ثم يبدأون النظر منتظرين ما يؤديه اليه البرهان سائرين خطوة حتى يصلوا الى النتيجة كائنة ما كانت

فيعتقدونها . فموقف الفلاسفة موقف قاض [21] ونفس هذا المعنى يقول به كثير من الباحثين . أما فلاسفة المسلمين فمنهجهم فى الاستدلال على العقيدة يستمد من البحث النظرى المحض . وما وجدوه بالاعجاب من آراء فلاسفة اليونان خصوصا آراء أرسطو وأفلاطون وما عرفوه من النصوص فاتجهوا الى التوفيق وبذلوا فيه جهدا كبيرا ولا يخفى علينا أن التوفيق هو المنهج البارز فى تفكير فلاسفة المسلمين .

لهذا نرى أنهم دافعوا عن الفلسفة كما دافعوا عن الدين دفاعا مستميتا وآمنوا بهما ايمانا كاملا.ولاختلاف المنهجين كان بين المتكلمين والفلاسفة خصومة عنيفة فى الاستدلال على العقيدة وفى تفسيرها ومعالجتها .

الحشية والمراجع :

١ – المراد بالسلف هنا هم الذين كانوا يعتمدون فى اثبات العقائد وأدلتها على القرآن والسنة فقط ولا يلتفون الى أدلة أخرى ولا يؤولون ولا يشبهون بل ينزهون،ويفضون، وهؤلاء كالصحابة والتابعين رضوان الله عليهم ومن نسج على منوالهم ونهج منهجهم ، دون السلف بالمفهوم الزمنى أى الذين وجدوا فى القرون الأولى لأن بعضهم سلكوا منهجا خاصا فى اثبات العقيدة ، كأبى حذيفة ، واصل ابن عطاء (٨٠ هـ – ١٣١هـ) فله منهج وآراءفى مسائل العقيدة تخالف السلف من الصحابة والتابعين، ومن آرائه كما أشار الشهرشتانى وغيره : نفى صفات البارى تعالى من العلم والقدر والارادة وغيرها بل رأى أنها عين ذاته تعالى والقول بالقدر أو حرية ارادة الانسان . والقول بالمنزلة بين المنزلتين ، وغيرها. وقد سبقة كذلك كثيرا ممن وجدوا فى القرون الأولى الذين تكلموا فى مسائل العقيدة كمعبد بن عبد الله

الجهنى (ت ٨٠هـ) أول من أثار فكرة حرية الادارة واثبات الاختيار – وجهم بن صفوان (ت ١٢٨ هـ)الذى أفرط فى اثبات الجبر وغير هؤلاء ممن خالفوا منهج السلف فى مسائل العقيدة ٠

٢ – المقريزى ، تقى الدين أحمد بن على بن محمد ،الخطط، دار التحرير للطبع والنشر،مصر ١٢٧٠هـ ج،٣،ص ٣٠٢ ٠

٣ – المائدة : ٣ ٠

٤ – ابن تيمية احمد بن عبدالحليم ، موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول ، دار الكتب العلمية ، بيروت (د ت) ج ١ ، ص ١٣ ٠

٥ – الانعام : ٦٨ ٠

٦ – غافر : ٤ ٠

٧ – الاية من آل عمران : ٧ ٠

٨ – العسقلانى ، احمد بن على بن حجر، فتح البارى، المكتبة السلفية القاهرة ،(د ت) ، ج ٨ ، ص ٢٠٩ ٠
والامام مسلم، مسلم الحجاج بن مسلم ، صحيح مسلم، عيسى البابى الحلبى، القاهرة : ١٣٧٥ هـ ، ج ٤ ، ص ٢٥٣ ٠

٩ – أبوزهرة محمد،تاريخ المذاهب الاسلامية ، دار الفكر العربى ، مصر ، (د ت) ص ١٣٣ ٠
ومحمود عبدالحليم ، التفكير الفلسفى فى الاسلام ،بيروت ١٩٧٤م، ص ١٣٤ ٠

١٠– الغزالى أبو حامد محمد بن محمد ، الجامع العوام، مصر (د ت) ٤٢ ٠

١١– ابن خلدون ، عبدالرحمن بن خلدون ، مقدمة ، القاهرة (دت) ص ٤٦٦ ٠

والعراقى محمد عاطف ، المنهج النقدى ، القاهرة ١٩٨٠م ، ص ٥٢ ٠

١٢- أبو زهرة محمد ، تاريخ المذاهب الاسلامية ، دار الفكر العربى، مصر ، (د ت) ص ١٨٨ .

١٣- المصدر السابق ، ص ١٣٨ .

١٤- ابن عساكر على بن الحسن ، يبيين كذب المفترى، دار الكتاب العربى ، بيروت ١٩٧٩ م . ص ٣٩ .

١٥- الاشعرى ، على بن اسماعيل ، الابانة عن أصول الديانة ، دار الانصار، القاهرة ص ٢٠ .

١٦- ـــــــــــــ، استحسان الخوض فى علم الكلام ، حيد آباد، (د ت) ص ٨٧ .

١٨- انظر الشهرستانى ، الملل والنحل ، البابى الحلبى، مصر (د ت) جـ ١ ، ص ٩٦ .

١٩- ابن سينا أبو على الحسن بن عبدالله ، الشفاء ،الهيئة العامة ، مصر ١٩٨٠م ، ص ٤٤٢ - ٤٤٣.

٢٠- ـــــــــــــ عيون الحكمه ، دار القلم ، بيروت ١٩٨٠م ، ص ١٦ .

٢١- أمين أحمد، ضحى الاسلام ، دار الكتاب العربى، بيروت (د ت) ، جـ ٣ ، ص ١٨ .